

التحول السياسي والاقتصادي والاجتماعي بمصر ودوره في إضعاف دولة المماليك (ق 8-9هـ / 14-15م)

The political , économic and social transformation in Egypt
and its role in weakening the Memluk state
(8-9AH / 14-15AD)

د. شهيرة علامي

المدرسة العليا للأساتذة - الشيخ مبارك بن محمد إبراهيم الميلي الجزائري - بوزريعة، (الجزائر)
chahiraallami4325@gmail.com

أ.د. فاطمة بوعمامة

المدرسة العليا للأساتذة - الشيخ مبارك بن محمد إبراهيم الميلي الجزائري - بوزريعة، (الجزائر)
bouamamafatma@outlook.fr

تاريخ النشر: 2023 / 12 / 21

تاريخ القبول: 2023 / 09 / 05

تاريخ الإرسال: 2021 / 06 / 13

I المؤلف المراسل: د. علامي شهيرة، chahiraallami4325@gmail.com

الملخص:

ستركز دراستنا في هذا الموضوع على تناول أبرز التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي حدثت بمصر ابتداءً من النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، والتي كان لها دور كبير في إضعاف سلطنة المماليك بمصر والشام، تصدرها بالجانب السياسي الصراع الكبير الذي كان على أشده بين الأمراء للوصول إلى السلطة، إضافة إلى صغر سن السلاطين الذين حكموا البلاد في هذه الفترة الذي سهل لبعض الأمراء الأفراد بشؤون الحكم هذا على المستوى الداخلي، أما على المستوى الخارجي فكان أهم حدث ساهم بشكل كبير في تغيير موازين القوى والتعجيل بنهاية الدولة المملوكية وهو اكتشاف رأس الرجاء الصالح سنة 893هـ/1487م، أما على المستويين الاقتصادي والاجتماعي فقد كانت الإجراءات الاقتصاديةية التعسفية التي ارتبطت بسلطنة المماليك على حركة الأسواق في هذه الفترة، ونظام فرض الضرائب على التجار، وتدهور النظام النقدي في عهد المماليك الجراكسة أعظم الأثر في تدهور الأحوال الاقتصادية والاجتماعية للبلاد إلى جانب السلسلة الرهيبة من الأوبئة والمجاعات التي عانى منها المجتمع المصري.

الكلمات المفتاحية:

العصر المملوكي، مصر، الجانب السياسي، الجانب الاقتصادي والاجتماعي، الأوبئة، تقسيم فئات المجتمع.

Abstract:

Summary of the Article : our study will focus on dealing with the most prominent political, economic and social transformations that took place in Egypt from the eighth century ah /fourteenth century ad, which had a great role in weakening the mamluk sultanate in Egypt and the levant, and it was led by the political side of the great struggle that was most intense between the princes to gain power, in addition to due to the young age of the sultans who ruled the country during this period, which made it easier for some princes to be alone in matters of government at the internal level, while on the external level, the most important event that contributed greatly to changing the balance of power and accelerating the end of the mamluk state was the discovery of the cape of good hope in the year 893ah/1487ce on economic and social levels, the arbitrary economic measures that were associated with the mamluk sultanate on the movement of market during this period, the taxation system on merchants and the deterioration of the monetary system during the era of the Circassia mamekes had the greatest impact on the deterioration of the country's economic and social conditions, along with the terrible series of epidemics and famines that Egyptian society suffered from it.

Keywords:

the mamluk era Egypt, the political aspect and economic and social, aspect epidemics; the division of groups of society

مقدمة:

كانت مصر منذ النصف الثاني من القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي، تحت ظل دولة المماليك البحرية التي قامت على أنقاض الدولة الأيوبية بعد مقتل آخر سلاطينها توران شاه سنة 648هـ/1250م، وتولي شجرة الدر السلطنة والتي اعتبرها بعض المؤرخين أنها أولى سلاطين المماليك، وهذه الأخيرة وبعد ثمانين يوماً تنازلت عن الحكم لواحد من أمراء المماليك بعد أن اختارته زوجاً لها وهو عز الدين أيبك التركماني الصالحي لكنه قتل على أيدي أحد غلمانها، ومن هنا نطرح إشكاليتنا الرئيسية لهذا الموضوع والمتمثلة في معرفة أهم السمات البارزة التي تميز بها عصر سلاطين المماليك؟ ولماذا اتخذ هؤلاء العنف والدم كأحد الوسائل الأساسية للوصول إلى العرش؟ وفيما يتمثل الدور الكبير الذي قام به سلاطينهم أثناء تواجدهم بمصر على مختلف الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية؟ وماهي أهم الأسباب التي ساهمت في ضعف دولتهم؟

1. الجانب السياسي: كانت فرصة المماليك¹ للبروز على مسرح الأحداث سنة

656هـ/1258م التي شهدت اجتياح المغول للعالم الإسلامي نتجت عنه تغيرات كبيرة في موازين القوى بالمنطقة ، منها سقوط بغداد على يد القائد المغولي هولاكو وقتله للخليفة المستعصم بالله(656هـ/1258م، فكان وقع الصدمة مريراً وعنيفاً في نفوس المسلمين الذين وجدوا أنفسهم بدون خليفة²، وازداد خطر التتار بوصول زحفهم إلى أطراف الشام بعد استلائهم على حلب ودمشق وأنطاكية، وأضحى خطرهم قريباً من مصر، فاستغل سيف الدين قطز(سنة1259/657هـ - 1260/658هـ) الفرصة لتأكيد الدور الذي وجدت من أجله دولة المماليك وهو الدفاع عن أراضي المسلمين من أي خطر يتربص بها ، فأعد جيشاً قوياً بقيادته إلى جانب الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري³(1260/658هـ - 1277/676هـ) لمواجهة التتار وفعلاً تحقق النصر الذي كان المسلمون بانتظاره في موقعة عين جالوت سنة 658هـ/1260م، وبينما كان قطز يستعد للعودة إلى مصر للاحتفال بالنصر الذي حققته جيوشه تطورت الأحداث بالشكل الذي جعله يلقي حنفة على يد الأمير بيبرس البندقداري ، وتطبيقاً للمبدأ السياسي الذي سارت عليه دولة المماليك "الحكم لمن غلب" اعتلى القاتل عرش الضحية⁴.

ويعتبر الظاهر بيبرس المؤسس الحقيقي لهذه الدولة بفضل إنجازاته السياسية والادارية والعسكرية التي جعلت دولته تحظى باحترام القوى العالمية المعاصرة على المستوى الخارجي، إضافة إلى إضفاء رداء الشرعية الدينية على حكمه وذلك بإحياء الخلافة العباسية في مصر باستدعائه أميراً عباسياً هو أبو القاسم أحمد بن الخليفة الظاهر محمد بن الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء بالله وتمت مبايعة هذا الأخير خليفة، ولكنها خلافة صورية فقط على حد تعبير المؤرخ تقي الدين المقرئ(ت845هـ/1441م) "وليس له أمر ولا نهي ولا نفوذ كلمة، وإنما هو بمنزلة واحد من الأعيان" وبدوره قام الخليفة العباسي بتفويض السلطان الظاهر بيبرس حكم البلاد الإسلامية⁵.

وهكذا نالت دولة سلاطين المماليك البعد الديني الذي يؤكد شرعيتها في عيون رعاياها وصارت القاهرة وجهة لكل من يبحث عن الأمن والاستقرار من شتى أرجاء المسلمين، وعاشت دولة المماليك أوج قوتها في عهد الظاهر بيبرس وخلفائه من بني قلاوون وهم: المنصور قلاوون (678-689هـ/127-1290م) وأبنائه الأشرف خليل (689-693هـ/1279-1294م) والناصر محمد (693هـ-741هـ/1294-1341م) الذين ساروا على نفس السياسة تم من خلالها القضاء على خطر المغول ، الذين اعتنقوا الإسلام وذابوا في الحضارة الإسلامية، إضافة إلى استئصال شأفة الوجود الصليبي في بلاد الشام أواخر القرن السابع/الثالث عشر ميلادي(690هـ/1291م)⁶.

لكن أيام الاستقرار والرخاء التي عاشتها مصر أيام بيبرس وخلفائه من أسرة قلاوون سرعان ما تحولت في عهد أولاد الناصر محمد الثمانية الذين حكموا السلطنة من (741-762هـ/1341-1361م) إلى اضطراب وفوضى نتيجة استغلال الأمراء لصغر سن السلاطين الذين حكموا البلاد، حيث فضل هؤلاء الأمراء الاختفاء وراء ستار السلاطين الأطفال لتحقيق مؤامراتهم ودسائسهم، وقد زاد من الوضع سوءا في تلك المرحلة انتشار وباء خطير عرف ب: "الوباء الأسود" سنة 749هـ/1348م والذي كانت له تداعيات خطيرة على جميع المستويات⁷.

واستمرت هذه الأوضاع المزرية إلى عهد أحفاد الناصر محمد بن قلاوون الذين امتدت فترة حكمهم بين (762-784هـ/1361-1382م)، كان فيها السلاطين مجموعة من الدمى التي يحركها الأمراء ، حيث أن أعمار السلاطين كانت تتراوح بين ست سنوات وإحدى عشرة سنة، فكان من السهل أن يتلاعب بهم الأمراء الذين زاد نفوذهم وتحكمهم بمصالح البلاد والعباد⁸، ومن هؤلاء الأمراء الذين برز اسمهم نجد: قشتمر المنصوري، يلغا الخاصكي، وبرقوق، هذا الأخير الذي كان من المماليك الجراكسة الذين زاد نفوذهم في تلك الفترة أدى إلى تمكنهم من انتزاع الحكم سنة 784هـ/1383م.

كما شهدت الفترة كارثة عسكرية برهنت على مدى تدهور الهيبة العسكرية لسلطين المماليك، عندما قاد الصليبيون حملة عسكرية قادها ملك قبرص لوزينان لنهب الإسكندرية وتدميرها سنة 767هـ/1365م⁹، وكانت هذه الغارة بمثابة المسمار الأخير في نعش دولة سلاطين المماليك الأولى وإيذاناً بنهاية ذلك النمط من الحكم ليبدأ عهد جديد لطائفة أخرى من المماليك وهي دولة المماليك الجراكسة التي ظلت تحكم مصر والشام لمدة قرن و تسعة وثلاثين سنة توالى على عرش البلاد خمسة وعشرون سلطاناً جلهم من العنصر الجركسي، كان أول سلاطينها الظاهر برقوق (784 - 801هـ/1382 - 1399م) و آخر سلاطينها الأشرف طومان باي (922 - 923هـ/1516 - 1517م)، وكانت أهم الأحداث التي ميزت هذا العصر:

— ضعف سيطرة الأمراء والسلاطين على طائفة المماليك الجلبان¹⁰، الذين كانت حوادث شغبهم وحروبهم في الشوارع تملأ طرق القاهرة وأزقتها، مما أدى إلى التدهور الأمني في البلاد واستمر هذا التدهور طيلة هذا العصر، ومن هذه الحوادث التي آثارها الجلبان أنهم سنة 877هـ/1473م هاجموا أحد كبار موظفي الدولة وأهانوه دون أن يتعرضوا إلى أي عقوبة أو ردع، وهذا ما أدى بهم إلى التمادي في تصرفاتهم بمحاولة قتل "الأمير يشبك الداودادارفي عهد السلطان الأشرف قايتباي (872 - 901هـ/1468 - 1496م)، و أدى الفشل والتدهور السياسي الذي بلغته الدولة إلى عجز الحكام في التصدي لهؤلاء الجلبان، كما جعل الأهالي يتولون المهمة بأنفسهم وقد ألحق الأهالي ضرراً كبيراً بهؤلاء المماليك¹¹، فساهمت هذه التطورات بخلق نوع من الفوضى والاضطراب في البلاد التي استمرت حتى سقوط دولة المماليك، وقد وصف المؤرخ المملوكي ابن تغري بردي (ت874هـ/1470م) أحوال البلاد في هذه الفترة قائلاً: "وكان أول الشهر يوم الجمعة الموافق لأول طوبة من شهور القبط، فتخوف كل أحد من مجيء الطاعون إلى القاهرة، هذا مع ما الناس فيه من جهد البلاء من غلو الأسعار وظلم المماليك الأجلباب الذي خرج عن الحد، وعدم الأمن، وكثرة المخاوف في الأزقة والشوارع"¹².

كما تميز هذا العصر بارتفاع مرتبات المماليك النقدية رغم تدهور أحوال البلاد السياسية والاقتصادية، والسبب يعود إلى تدهور انتاجية الأرض التي كانت تمنح كإقطاعات للمماليك إضافة إلى كثرة عدد المماليك و تفشي الفساد والرشوة، وهذا ما أدى استنزاف خزينة الدولة¹³، هذا على المستوى الداخلي.

أما على المستوى الخارجي فقد واجه المماليك خطر تيمور لنك (1336/736 - 808هـ/1405م) زعيم التتار آنذاك، الذي استولى على بغداد سنة (795هـ/1393م) وماردين التي كانت تابعة لدولة المماليك وبذلك بات على وشك الصدام مع هذه الأخيرة، مما دفع بالسلطان المملوكي آنذاك الناصر فرج (1399/801 - 815هـ/1412م) إلى عقد معاهدة مع تيمور لنك سنة (804هـ/1401م).

إضافة إلى أهم حدث عسكري ميز هذه الفترة على المستوى الخارجي كان في عهد السلطان الأشرف برسباي، وهو فتح جزيرة قبرص¹⁴ وضمها لسلطنة المماليك، وكان ذلك سنة 829هـ/1426م¹⁵.

إضافة إلى كل هذه الأحداث المتوالية عرفت الفترة الأخيرة من الحكم المملوكي أهم حدث على الصعيد الخارجي والذي ساهم بشكل كبير في تغيير موازين القوى والتعجيل بنهاية الدولة المملوكية وهو اكتشاف رأس الرجاء الصالح¹⁶ سنة 893هـ/1487م¹⁷، فبه اهتزت سلطنة المماليك لذلك الانقلاب المفاجئ في طرق التجارة العالمية، نتيجة اصطدامهم بالبرتغاليين في موقعة "ديو"¹⁸ البحرية سنة 915هـ/1509م وانهمامهم وتحطم أسطولهم، وتراجعت تجارة مصر مع الشرق الأقصى والغرب الأوروبي والتي كانت تمثل المصدر الأساسي لموارد الدولة وامتد هذا التراجع والانحيار إلى جوانب الحياة المختلفة¹⁹.

فاستغل العثمانيون²⁰ الذين ظهروا على مسرح الأحداث في تلك الفترة الضعف الذي أصاب دولة المماليك وأنزلوا بهم هزيمتين متتاليتين بقيادة السلطان العثماني سليم الأول²¹ (918 - 926هـ/1512 - 1520م) الأولى كانت بمرج دابق²² سنة 922هـ/1516م والثانية كانت بالريدانية²³ سنة 923هـ/1517م وكانت نتيجة المعركة الأخيرة إعدام آخر سلاطين المماليك طومان باي والقضاء نهائياً على دولة المماليك²⁴.

من خلال ما سبق اتضح لنا أن الحياة السياسية بمصر خلال النصف الثاني من القرن الثامن والقرن التاسع الهجريين/الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين شهدت عدة انتصارات حققتها دولة المماليك، التي استطاعت صد الهجوم المغولي والوقوف كسد منيع أمام زحفها إلى الشام ومصر، إضافة إلى التصدي لهجمات الصليبيين وطردهم من أراضي الشام، ومن ناحية أخرى وكما أشرنا سابقاً أن هذه الفترة تميزت بعدم الاستقرار وكثرة الفتن والتنافس بين كبار الأمراء المماليك وطوائفهم على السلطة وكان لهذا التدهور الأمني أثره على الحياة الاقتصادية والاجتماعية.

2. الجانب الاقتصادي والاجتماعي:

كما مر سابقاً أن سلطنة المماليك عرفت بعد وفاة السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة 741هـ/1340م تراجعاً شمل النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولم تفلح محاولات المخلصين من الأمراء والقضاة والعلماء في الحيلولة دون تفاقم ذلك التراجع، وفيما يلي نستعرض التطورات التي مرت بها الحياة الاقتصادية والاجتماعية خلال النصف الثاني من القرن الثامن والقرن التاسع، ثم نتطرق إلى أهم الطبقات التي تكون منها المجتمع في تلك الفترة:

أولاً: ميزات الحياة الاقتصادية والاجتماعية: كان لتدهور الأوضاع السياسية بسلطنة المماليك أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الهجريين/الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين آثاراً واضحة على الأحوال الاقتصادية والاجتماعية، حيث تغلق الأسواق وتتوقف جميع مظاهر الأنشطة الحرفية والصناعية والعمرانية ويترك كل ذي عملٍ عمله لكي يتفرغ للفرجة على النزاع المسلح بين مختلف طوائف المماليك المتطاحنة من أجل الوصول إلى السلطة.²⁵

إضافة إلى أن هذه الفترة شهدت تنامي نفوذ المماليك الجلبان وعدم قدرة السلاطين والأمراء على ردعهم نتيجة انهيار النظام الإقطاعي²⁶ الذي قامت على أساسه الدولة، بسبب إهمال الحكام المماليك الأراضي الزراعية، ومرافق الري و الجسور والترع، وهذا ما أدى إلى تدهور الإنتاج الزراعي ومن ثمة قل اعتماد المماليك على عائد الأرض الزراعية وزاد اعتمادهم على الرواتب النقدية والمخصصات العينية التي كان السلاطين يصرفونها لهم،

وحين لم يستطع السلاطين إشباع مطالب المماليك، تكررت حوادث الشغب التي كانوا يثيرونها، وكثرت حوادث نهب الأسواق وخطف البضائع والاعتداء على الناس في الشوارع والأسواق، مما أدى إلى اضطراب البلاد والسكان وبالتالي أغلقت الأسواق وتوقفت حركة البيع والشراء.²⁷

كما ساهم العربان²⁸ بشكل كبير في انعدام الأمن بربوع البلاد واضطراب الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وذلك بمهاجمة القرى والمدن ونهبها اعتراضاً على حكم المماليك²⁹، حيث يذكر المؤرخ تقي الدين المقرئ (ت845هـ/1441م) في حوادث سنة 818هـ/1415م أنه كثر في هذه السنة عبث العربان بالوجه القبلي والوجه البحري، واشتد بأسهم، وعجز أرباب الدولة عنهم³⁰، كما ذكر في حوادث 820هـ/1417م: "أن أرض مصر بلغت من عبث العربان ونهبهم وتخريبهم وقطعهم الطرقات على المسافرين من التجار وغيرهم شيء، عظيم قبحه، شنيع وصفه"³¹.

كما أثرت الإجراءات الاقتصادية التعسفية التي ارتبطت بسلطنة المماليك على حركة الأسواق في هذه الفترة، فكان أهم إجراء اقتصادي هو نظام طرح البضائع، الذي تفرض من خلاله الدولة ما يتوفر لديها من سلع وبضائع بالسعر الذي تحدده والكمية التي تراها، مع إلزام التجار بتسديد أثمانها، وهذا ما سبب لهم الكثير من المتاعب، إضافة إلى تعطيل الأسواق نتيجة انشغال التجار بشراء ما تطرحه الدولة من بضائع، مثلما حدث سنة 829هـ/1426م بعد الاستيلاء على جزيرة قبرص وأسر ملكها جانوس إذ أمر السلطان برسباي (1422/825 - 1438هـ/1438م) بجمع التجار لشراء الغنائم³².

إضافة إلى هذه الإجراءات نجد نظام فرض الضرائب على التجار الذي زاد من عبء كاهلهم على مر السنين، وكانت نتيجته لجوء هؤلاء التجار إلى الغش في الموازين والمكاييل رغبة في تعويض الأموال التي غرموها³³.

وكان لتدهور النظام النقدي في عهد المماليك الجراكسة أعظم الأثر في تدهور الأحوال الاقتصادية والاجتماعية للبلاد، وذلك بظهور الفلوس النحاسية محل الذهب والفضة، وانتشرت ظاهرة تزيف العملة بإنقاص الوزن وخط الفلوس بمعادن أخرى أقل قيمة، حيث أورد المقرئ (ت845هـ / 1441م) في حوادث سنة 826هـ/1423م أن السلطان برسباي

(825 / 1422 - 841هـ/1438م) جمع الأمراء والقضاة ومجموعة من التجار من أجل البحث في تدهور حال الفلوس وهذا يدل على مدى الانحطاط والعجز الذي وصلت إليه الدولة فوصف هذه الحالة في كتابه السلوك لمعرفة دول الملوك قائلاً: "شهر صفر أوله الخميس: في ثامن عشره: جمع السلطان الأمراء والقضاة ومباشريه، وأحضر جماعة من التجار، وأنكر حال الفلوس، وذلك أنها كما تقدم غير مرة أنها هي النقد الرائج بأرض مصر، فينسب إليها أثمان المبيعات وقيم الأعمال... وحدث في الفلوس مع ذلك ما لم يكن يعهد منذ ضربت، وهو أنه خلط فيها قطع الحديد وقطع النحاس وقطع الرصاص، من أجل أنها تؤخذ وزناً لا عدداً، وتغافل الحكام عن إنكار ذلك فتماذى الحال على هذا من بعد موت المؤيد...³⁴."

كذلك من ميزات هذه الفترة عدم استقرار أسعار المواد الغذائية مع ارتفاعها المتزايد بين فترة وأخرى فعانى الناس البسطاء من الغلاء وندرة الحصول على الأغذية الأساسية اللازمة للنفقات اليومية، في حين هنى السلاطين وحاشيتهم في رغد العيش والبدخ والصرف غير المحدود في القصور والملابس والجواهر³⁵، إلى جانب كل هذا فقد اكتست الرشوة في هذه الفترة صفة الشرعية والرسمية حيث تشير المصادر المعاصرة لهذه الفترة أنها بلغت ذروتها في عهد السلطان الظاهر برقوق (ت801هـ/1399م).³⁶

غير أن أخطر ما قاساه المجتمع في ذلك العصر هو تلك السلسلة الرهيبة من الأوبئة والمجاعات والتي كان سببها في غالب الأحوال راجعاً إلى قصور فيضان النيل عن الوفاء باعتباره محور الحياة المصرية في عصر سلاطين المماليك بشتى نواحيها³⁷، وكان أخطرهم وباء سنة (1347/748م - 1348/749م) الذي أطلق عليه المؤرخون اسم "الفناء الكبير"³⁸ وظلت آثاره ونتائجه تفرض نفسها على الحياة المصرية فترة طويلة، و يعد أحد الأحداث المهمة التي ساهمت في إضعاف دولة المماليك، وبعده كذلك شهدت البلاد عدت أوبئة والتي استمرت من (1394/796م حتى سنة 1405هـ/1408م) وعاصر المؤرخ تقي الدين المقرئ (ت845هـ / 1441م) هذه الأوبئة وهاله ما شاهده أثناء هذه المجاعات ولمس بنفسه أسبابها الحقيقية، ومن ثم أفرد كتاب لهذا الموضوع المسمى "إغاثة الأمة بكشف الغمة"³⁹ الذي تتبع تاريخ المجاعات التي حلت بمصر منذ أقدم العصور إلى سنة 808هـ/1405م⁴⁰،

وهي السنة التي ألف فيها هذا الكتاب من منطلق اقتصادي وظروف قاسية عاشها إلى جانب مجتمعه في تلك الفترة، فهي تعتبر دراسة اقتصادية تحليلية ناقدة، رائدة و نادرة وفريدة من نوعها نظراً للآراء والنظريات التي طرحت في هذا الكتاب، حيث يبدو بوضوح أثر تفكير أستاذه ابن خلدون فيها (ت808هـ/1406م).

وكان هدفه فيها توضيح حقيقتين مهمتين: - تحليل الأسباب التي أدت إلى حدوث هذه الأزمات والمحن من: مجاعات وأوبئة ما يصابها من غلاء في الأسعار ونقص في الأقوات ورواج الفلوس النحاسية و ندرة الدينار الذهبي والدرهم الفضي في الأسواق - أما ثاني هدف أراحه المقرئ من وراء كتابته هذه الرسالة هو اقتراح حلول لتخطي وعلاج هذه المحن و الكوارث التي خلفت عدة آثار منها تراجع فادح في عدد السكان معظمهم من سواد العامة من الفلاحين الذين كانوا يعانون البؤس والحرمان، فقد تضافرت عليهم كوارث الطبيعة وظلم الحكام.⁴¹

ثانياً: فئات المجتمع: من البديهي أن يكون المجتمع في عصر المماليك مجتمع طبقي نتيجة النظام الإقطاعي الذي قامت على أساسه الدولة، والمؤرخ ابن خلدون (ت808هـ/1405م) أدرك حقيقة هذا الواقع الطبقي الحاد فقسم المجتمع في هذه الفترة إلى "سلطان ورعية"، ويقصد "بالسلطان" الجهاز الحاكم والفئات التي تعيش على هامشه من أهل البلاد⁴² وتفصيل ذلك فيما يلي:

أ- فئة الحكام: هم طبقة عسكرية استأثروا بشؤون الحكم والحرب وكان منهم: أتراك وجراكسة ومغول وصينيين ويونانيين وسلاف، و جرت العادة أن ينسب المملوك إلى سيده الذي اشتراه، فقد عني السلاطين المماليك عناية فائقة بمماليكهم وحرصوا على تربيتهم تربية سليمة، و ظل المماليك طبقة منفصلة عن سائر السكان في مصر والشام لها حياتها الخاصة، وهذه العزلة هي التي أوجدت فجوة بين الحكام والمحكومين.

ب- فئة أهل العمامة: وتشمل أرباب الوظائف الديوانية والفقهاء والعلماء والأدباء والكتاب، وامتازت هذه الفئة بميزات معينة، وهي أن المماليك اتخذوها كدعامة ووسيط بينهم وبين الرعية، وحظوا بمكانة مرموقة أحياناً لدى بعض السلاطين، والنقد والتهكم أحياناً أخرى.

ج- فئة التجار: هم طبقة مقربة إلى السلاطين، لأنهم مصدر المال في أيام الحرج والشدّة وقد تمتعت هذه الفئة بثروات طائلة في هذا العصر، وهذا ما جعل السلاطين في مرحلة التدهور يصادرون أموالهم ويتقلونهم بالرسوم.⁴³

أما "الرعية" فيقصد بهم ابن خلدون سكان البلاد بمختلف طوائفهم وفئاتهم⁴⁴، وهم:

د- فئة العوام: وتضم العمال والصناع والباعة والسقّاءين وأشباه المعدمين، وعاش أفراد هذه الطبقة في ضيق وعسر مما دفع الكثير منهم إلى احتراف السلب والنهب في أوقات الفتن والاضطرابات.

هـ- فئة الفلاحين: هم السواد الأعظم من السكان كان نصيبهم في هذه الفترة التحقير والإهمال وكثرة المغارم والمظالم من الولاة والحكام، وقد تعرضت مزارعهم وقراهم للنهب والبطش من طرف العربان، الذين كانوا دائماً مصدر الفتن والمنازعات التي دارت بينهم وبين سلطة الممالك، هذا بالنسبة لتقسيم ابن خلدون.

أما تلميذه المقرئزي (ت845هـ/1441م) فقد قسمهم إلى سبعة أصناف وبين أحوالهم وأوصافهم وآثار الأزمات الاقتصادية على كل صنف⁴⁵ كما هو موضح في الجدول رقم⁴⁶01.

واتضح لنا مما تضمنه هذا الجدول أن تقسيم المقرئزي كان أكثر تفصيل و دقة من تقسيم ابن خلدون، ويعود ذلك إلى أن المقرئزي رتب هذه الفئات حسب دخلها المالي، كما أنه ولد في القاهرة وترعرع في أزقتها و أحيائها وحارتها واحتك بأهلها فهو أعرف بأحوالهم وأوصافهم من ابن خلدون.

إضافة إلى هذه الفئات نجد فئة أهل الذمة: المتمثلة في النصارى وينقسمون إلى فرقتين:

- 1- الملكانية (الملكية) واليعاقبة، أما اليهود فكانت موجودة ثلاث فرق هم:**
- 2- الربانئون (الربانيون) والقراؤون والسامرة⁴⁷، و كان لأهل الذمة في العصر المملوكي دور في الحياة الاجتماعية والاقتصادية بحيث ساهموا في أعمال صيانة مرافق الري مثل حفر الآبار وبناء الجسور، وانفرد الأقباط بممارسة النشاط الزراعي وباقي المسيحيين بدي أثرهم واضح في النشاط التجاري الداخلي، كما عمل اليهود في مختلف الحرف التي عرفها المجتمع آنذاك خاصة النشاط المصرفي والأعمال المالية إضافة إلى مهنة التنجيم.⁴⁸**

كان هذا أهم ما ميز الحياة الاقتصادية والاجتماعية لسلطنة المماليك خلال النصف الثاني من القرن الثامن القرن التاسع على المستوى الداخلي، أما على المستوى الخارجي فقد عرف الشطر الثاني من حكم المماليك (المماليك الجراكسة) عدة أحداث كان لها بالغ الأثر في إضعاف سلطنة المماليك على مختلف الأصعدة، فإذا كانت هجمات أمراء التركمان بمساعدة العثمانيين، إضافة إلى هجوم الفرنج وقراصنتهم على شواطئ دولة المماليك وموانئها وقطع الطرق على سفنها التجارية في عرض البحر المتوسط تطلب نفقات باهظة استنزفت خزينة الدولة لصد هذه الهجمات، فإن اكتشاف البرتغاليين لرأس الرجاء الصالح سنة 892هـ/1487م ووصولهم إلى الهند سنة 904هـ/1498م ساهم في تدهور الاقتصاد المملوكي باعتباره حرمهم من المورد الأول لثروتهم وهو التجارة فكان هذا الحدث أشبه بالقشة التي قصمت ظهر البعير، إذ به ذبلت تجارة المماليك مع الشرق الأقصى والغرب الأوروبي.⁴⁹

الخاتمة: ختاماً لما سبق ذكره نصل إلى عدة نتائج أهمها:

- أولاً: أن السلاطين المماليك كانوا بالمرصاد للأخطار التي هددت المنطقة- أي مصر وبلاد الشام- من جانب الصليبيين والمغول والغرب الأوروبي وأحرزوا باسم الإسلام انتصارات باهرة على الصعيدين السياسي والعسكري
- ثانياً: كما أضحت مصر وبلاد الشام خلال هذه الفترة مركزاً للتجارة العالمية وبوابة العبور إلى أوروبا، إضافة إلى أن المماليك مارسوا نشاطاً دينياً وعلمياً خصباً ظهر أثره في غزارة النشاط العلمي بكثرة الكتابة والتأليف وإقامة المنشآت التعليمية.
- ثالثاً: تميزت الحياة الاقتصادية والاجتماعية خلال النصف الثاني من القرن الثامن القرن التاسع بعدم الاستقرار ولا يمكن حصر العوامل التي سببت ذلك التدهور في إطار واحد، فالواقع أن العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والطبيعية كلها تداخلت وتشابكت فيما بينها لتخلق مزيداً من التدهور والانحطاط الذي تخبطت فيه دولة المماليك في شطرها الثاني، وهذا ما أكدته المصادر المعاصرة لهذه الفترة في وصفها لأحوال هذا العصر عن طريق ربط التدهور الاقتصادي بفساد النظام السياسي والتدهور الأمني وانحلال القيم الاجتماعية.⁵⁰

الجدول والرسومات:

جدول رقم 01: 51

الرقم	الفئة	الخصائص	آثار الأزمة
1	أهل الدولة	المسؤولون في السلطة	- استفادة ظاهرية: زادت إيراداتها لزيادة الضرائب على الأراضي، غير أن هذه الزيادة تبقى صورية بسبب تناقص القيمة الحقيقية لتلك المبالغ وتناقص مقدرة الناس على تلبية المطالب المالية المتزايدة، وبالتالي قلت أموالهم مقارنة بأمثاله من قبل.
2	أهل اليسار من التجار وأولو النعمة من ذوي الرفاهية	الثروة ممثلة في نقود سائلة	- تحقيق خسارة: ارتفاع الأسعار جعل هذه الثروة تتناقص قيمتها الحقيقية (تدني قيمة النقود)، كما يتناقص مقدارها بسبب نفقاتهم على ما يحتاجونه من مستلزمات.
3	الباعة من التجار (أصحاب البز)، وأصحاب المعاش	متوسطو الحال	- ارتفاع المداخيل: لكن بسبب ارتفاع الأسعار فإنهم حافظوا على مستوى المعيشة السابق.
4	أهل الفلح و الزراعات و الحرث	فقراء الزراع + أثرياء الزراع	- فقراء الزراع: تضرر معظمهم من الغلاء بسبب قلة ري الأراضي - أثرياء الزراع: فيهم من عظمت ثروتهم وفخمت نعمته بسبب ارتواء أراضيهم، ونالوا من زراعتها أموالاً جزيلة،
5	الفقراء من الفقهاء وطلاب العلم وأجناد الحنقة	أصحاب المرتبات الثابتة	- ضرر شديد: حيث ساءت أحوالهم؛ بسبب ارتفاع أسعار السلع والخدمات بشكل لا يتناسب مع مداخيلهم الثابتة أو المحدودة.
6	أرباب الصنائع والأجراء أصحاب المهن: خدم، حمالون، وبناء...	أجورهم منخفضة وعددهم محدود	- تضرر الغالبية: مات منهم الكثير؛ حيث لم يوجد الواحد منهم إلا بعد بحث وعناء.

		لموت أكثرهم - زيادة أجور البقية: بسبب أن عددهم تناقص؛ فإن أجور من بقي زادت.	
7	أهل السؤال: ذوي الحاجة والمسكنة	موت معظمهم جوعاً وبرداً، ولم يبق منهم إلا القليل.	

الهوامش:

1 المماليك في الأصل أرقاء من مختلف الأجناس والقوميات وإن كان العنصر التركي غالباً فيهم، جلبهم الفاطميون إلى مصر في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ثم سلاطين الأيوبيين، واستخدموا في الجندية وحماية السلطان، ثم انقلبوا على أسيادهم وسيطروا على الحكم وهم طائفتان : 1- المماليك البحريةية : أغلبهم من الترك والمغول ، جلبهم الأيوبيون وأسكنوهم بجزيرة الروضة بالنيل ولذلك سموا (البحرية)، وحكموا من سنة 648هـ / 1250 م إلى سنة 784 هـ/ 1382م، 2- المماليك البرجية : وهم أرقاء شراسة استخدمهم السلطان قلاوون لحراسة ملكه ، وأسكنهم بأبراج قلعة القاهرة ، ولذلك سموا (البرجية)، وحكموا من سنة 784 هـ / 1382م إلى سنة 923هـ / 1516م وكانت نهايتهم على يد السلطان سليم العثماني، للمزيد ينظر نجم الدين إبراهيم بن علي الحنفي الطرسوسي، تحفة الترك فيما يجب أن يعمل في الملك تح عبد الكريم محمد مطيع الحمداوي، ط2، ص78، تقي الدين أحمد المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك، تح محمد عبد القادر عطا، 1418هـ/ 1997م، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، ج2، ص218، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تح خليل المنصور، 1418هـ/ 1998م ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، ج3، ص420-426.

2 اسماعيل بن عمر ابن كثير: البداية والنهاية، تح علي شيري، 1408 هـ/ 1988م، ط1، (د م ن)، دار إحياء التراث العربي، ج13، ص200 - 205.

3 الملك الظاهر بيبرس البندقداري تولى السلطنة في ذي القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة وأخذ في جهاد الفرنج واستعادة ما ارتجعه من فتوح السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وغير ذلك ففتح عدة مدن في الشام، وتوفي بدمشق في المحرم سنة ست وسبعين وستمائة وبنى مدرسته الظاهرية بين القصرين، ترجمته عند القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تح يوسف علي طويل، ط1، دار الفكر، دمشق، 1408هـ/ 1987م، ج1، ص477، ج3، ص498، 299- 499، وللمزيد عن سيرة السلطان الظاهر وإنجازاته ينظر ابن شداد، تاريخ الملك الظاهر، تح أحمد حطيط، دار النشر فرانز شيتايز بقسبان، بيروت، 1403هـ/ 1983م.

4 جلال الدين عبد الرحمن السيوطي: تاريخ الخلفاء، تح حمدي الدمرداش، 1425هـ/2004م، ط1، (د م ن)، مكتبة نزار مصطفى الباز، ج2، ص161-162، قاسم عبده قاسم وعلي السيد علي: الأيوبيون والمماليك (التاريخ السياسي والعسكري)، (د س ن)، مصر، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، ص136-142.

5 تقي الدين أحمد المقرئ: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج3، ص423.

6 عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، (د س ن)، بيروت، دار الجيل، ج5، ص26-30، سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، 1417هـ/1996م، القاهرة، دار النهضة العربية، ص202-203.

7 نتطرق إلى هذا الوباء عند تناولنا لتطورات الحياة الاقتصادية والاجتماعية خلال فترة الدراسة .

8 جمال الدين يوسف ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، تقديم وتعليق محمد حسين شمس الدين، 1413هـ/1992م، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية، ج11، ص133، 31، عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج5، ص30-32، محمد جمال الدين سرور: دولة بني قلاوون في مصر، (د س ن)، (د م ن)، دار الفكر العربي، ص53-66.

9 للمزيد عن مجريات هذه الحادثة وتبعاتها ينظر تقي الدين أحمد المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، ص283-285، عبد العزيز، تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي، 1403هـ/1982م، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ص309-378.

10 المماليك الجلبان: كان معظمهم عند شرائهم في سن البلوغ، مما جعلهم يفتقدون إلى روح النظام والولاء لأستأذهم فأضحوا مصدر قلق وفوضى وخطر يهدد أمن وسلامة السلطان والدولة، للمزيد ينظر ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج14، ص160-163.

11 جمال الدين يوسف ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج14، ص271، ج16 ص74-75، ص90.

12 جمال الدين يوسف ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج16، ص111، قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك (التاريخ السياسي والاجتماعي)، 1419هـ/1998م، ط1، مصر، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، ص147-149.

13 جمال الدين يوسف ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج16، ص76-78، قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص148-149.

14 جزيرة قبرص: وهي جزيرة كبيرة مقدار ستة عشر يوماً، بها مدن كثيرة وقرى عامرة ومزارع وأنهار وأشجار وثمار؛ وبها معادن الزاج القبرصي الذي ليس في البلاد مثله شيء، وبها من المواشي ما يكفي بلاد الفرنج، سراج الدين عمر ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، تح أنور محمود زناتي،

1428هـ/2008م، (د م ن)، مكتبة الثقافة الدينية، ج1، 169-170، محمد المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، 1411هـ/1991م، ط3، القاهرة، مكتبة مدبولي، ص184.

15 جمال الدين يوسف ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج14، ص127-138، ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب في أخبار من ذهب، (د س ن)، (د م ن)، دار الكتب العلمية، ج7، ص238.

16 رأس الرجاء الصالح: شبه جزيرة في جنوب إفريقيا. ويقع جنوبي كيب تاون وشمال غربي كيب أجولاس، وهو آخر نقطة في طرف جنوب إفريقيا، الموسوعة العربية العالمية، ص1، <http://www.saaaid.net/book/index.php>

17 عن طريق المكتشف البرتغالي بارتليميو دياز الذي تمكن من الوصول إلى أقصى نقطة في الساحل الغربي لإفريقيا، وقد عرفه "برأس العواصف، لكن ملك البرتغال "يوحنا الثاني (886هـ/1481م-900هـ/1495م) أطلق عليه اسم "الرجاء الصالح" تيمنا بالكشف الجديد، وتبعه مكتشف آخر وهو "فاسكوداجاما" سنة 1497م والذي توجهت رحلته بالوصول إلى الهند، فاروق عثمان أباطة: أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر، (د س ن)، ط2، القاهرة، دار المعارف، ص37-46، علي إبراهيم عيسى: الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1421هـ/2000م.

18 موقعة ديو: جزيرة وميناء جنوب شبه جزيرة (كجرات) إلى الشمال الغربي من مدينة (بومباي). في الشمال الغربي من ساحل الهند، ينظر التعريف بالأعلام الواردة في البداية والنهاية لابن كثير: ج2، ص9، <http://www.saaaid.net/book/index.php>.

19 سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص296-299.

20 للمزيد حول كل ما يتعلق بالعثمانيين وتاريخهم ينظر محمد فريد بيك المحامي: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تح إحسان حقي، 1401هـ/1981م، ط1، بيروت، دار النفائس، ص113-120.

21 سليم الأول: يلقب ب: "ياوز أي القاطع"، ولد سنة 875هـ/1481م وصل إلى الحكم بعد أن خلع والده السلطان بايزيد الثاني ابن السلطان محمد الفاتح وقتل إخوته الذين نازعوه في الحكم، دامت سلطنته ثمان سنوات، للمزيد ينظر حضرة عزتو يوسف بك أصف، تاريخ سلاطين بني عثمان، تقديم: محمد زينهم محمد عذب، ط1، مكتبة مدبولي، 1415هـ/1995م، ص56-59، فريد بيك المحامي: المصدر السابق، 188-197.

22 مرج دابق: قرية من أعمال حلب وجانبها الشمالي وإليها ينسب المرج الذي يقال له مرج دابق، الحميري: النسبة إلى المواضع والبلدان، مكتبة مشكاة الإسلامية، ص288.

23 الريدانية: من ضواحي القاهرة تتضمن من أحيائها العباسية ومصر الجديدة، للمزيد عن هذه الأحداث للمزيد ينظر ابن طولون، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تح خليل المنصور، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ/1998م، ص351-352.

24 شمس الدين الغزي: الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، تح خليل المنصور، 1418هـ/1997م، بيروت، دار الكتب العلمية، ج1، ص209-212.

25 جمال الدين يوسف ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج14، ص237، ج16، ص64-65، حياة ناصر الحجي: السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك (فترة حكم السلاطين المماليك البحرية)، 1418هـ/1997م، ط1، الكويت، لجنة التأليف والتعريب والنشر، ص93.

26 النظام الإقطاعي: كانت دولة المماليك دولة إقطاعية، حيث قسمت أراضي مصر إلى أربعة وعشرين قراطاً، كان للسلطان منها أربعة قرايط، وكان للأمراء عشرة والعشرة الباقية من نصيب أجناد الحلقة، وقد استأثر السلطان وكبار الأمراء بأجود الأراضي وأكثرها خصوبة، وقد مسحت أراضي مصر في عصر المماليك مساحاً شاملاً أكثر من مرة، ويتم ذلك عن طريق قياسها وحصرها في سجلات وتقدير قيمتها وخصوبتها ثم إعادة توزيع الإقطاعات، وقد سميت هذه العملية ب"الروك" وأشهرها الروك الحسامي نسبة إلى السلطان حسام الدين لاجين سنة 697هـ/1297م، والروك الناصر ي سنة 715هـ/1315م، على أن النظام الإقطاعي لم يظل على حاله من الثبات، والإحكام طوال عصر المماليك، إذ لم يلبث أن أصابه الفساد والخلل، ومن مظاهر ذلك تصرف الأمراء والأجناد في إقطاعاتهم عن طريق البيع والتنازل والمقايضة، تقي الدين أحمد المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج2، ص289-291، سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، 1396هـ/1976م، ط2، القاهرة، دار النهضة العربية، ص360-365.

27 جمال الدين يوسف ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج14، ص164، ص188-189، ج16، ص76-78، قاسم عبده قاسم: أسواق مصر في عصر سلاطين المماليك، 1399هـ/1978م، القاهرة، مكتبة سعيد رأفت، ص56-61، عصر سلاطين المماليك، ص169.

28 العربان: هم قبائل عربية عديدة وجدت في مصر انتشروا في أجزاء مختلفة من البلاد وخاصة في: الشرقية، والبحيرة والمنوفية والفيوم والمنيا وأسيوط، للمزيد عن هذه القبائل العربية التي دخلت مصر بعد الفتح الإسلامي لمصر ينظر رسائل تقي الدين أحمد المقرئ (رسالة البيان والإعراب عن أرض مصر من الأعراب): تح رمضان البدرى وأحمد مصطفى قاسم، 1419هـ/1998م، ط1، القاهرة دار الحديث، محمود السيد، تاريخ القبائل العربية في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية، 1419هـ/1998م، الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة.

- 29 تقي الدين أحمد المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج6، ص386، جمال الدين يوسف ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج14، ص139، ج15، ص83-84.
- 30 تقي الدين أحمد المقرئ: السلوك، ج6، ص386.
- 31 المصدر نفسه، ج6، ص434.
- 32 نفسه، ج7، ص140، 141.
- 33 تقي الدين أحمد المقرئ: السلوك، ج7، ص128 - 129.
- 34 تقي الدين أحمد المقرئ: السلوك، ج7، ص74، جمال الدين يوسف ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج14، ص184-186، قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص243-247، أسواق مصر في عصر سلاطين المماليك، ص51-52.
- 35 تقي الدين أحمد المقرئ: السلوك، ج6، ص482، ص483، ص505-506، حياة ناصر الحاجي: السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك (فترة حكم السلاطين المماليك البحرية)، ص75.
- 36 الذي يقول عنه المقرئ: "وحدث في أيامه تجاهر الناس بالبراطيل (الرشوة)، فلا يكاد يلي أحد وظيفة ولا عملاً إلا بمال، فتزقي للأعمال الجليلة والرتب السنية الأراذل، تقي الدين أحمد المقرئ: السلوك، ج5، ص231، جمال الدين يوسف ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج12، ص83، عبد الرزاق أحمد: البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك، 1400هـ/1979م، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص31-32.
- 37 للمزيد عن النيل ودوره في الحياة المصرية ينظر قاسم عبده قاسم: النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، 1399هـ/1978م، ط1، القاهرة، دار المعارف، محمود رزق سليم: النيل في عصر المماليك، 1365هـ/1965م، القاهرة، دار القلم.
- 38 أو ما يسمى بالوباء الأسود وهو وباء عم أقطار الأرض وخرب أكثر البلاد، وكان من أعراض هذا الوباء أن يبصق المصاب دماً ثم يصيح ويموت، بدأ سنة 748هـ/1347م ثم اشتدت وطأته مع بداية العام التالي واستمر حوالي عامين، كان الوباء فتاكاً لدرجة أن الأدوية لم تكن تجدي نفعاً، فمتلأت الطرقات والمساجد بالضحايا، وقد أثر هذا الوباء على جميع أشكال الحياة في تلك الفترة، وللمزيد عن هذا الوباء ونتائجه ينظر اسماعيل بن عمر ابن كثير، البداية والنهاية، ج14، ص225-227، تقي الدين أحمد المقرئ: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج4، ص80-80، جمال الدين يوسف ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج10، ص155-168، ريمون أندريه: القاهرة تاريخ حاضرة، تر لطيف فرج، 1415هـ/1994م، ط1، القاهرة، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، ص129-137، قاسم عبده: عصر سلاطين المماليك، ص349.

- 39 تقي الدين أحمد المقريري: إغاثة الأمة بكشف الغمة، تح كرم حلمي فرحات، 1427هـ/2007م، ط1، (د م ن)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.
- 40 المصدر نفسه، ص81-114.
- 41 تقي الدين أحمد المقريري: إغاثة الأمة، قاسم عبده: عصر سلاطين المماليك، ص350-351.
- 42 عبد الرحمن ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ، (د س ن)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ج1، ص165، قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص164.
- 43 سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص320-324.
- 44 قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص164.
- 45 تقي الدين أحمد المقريري: إغاثة الأمة، ص147-150، ينظر أيضاً: عبد الحليم عمار غربي: مقال بعنوان: المقريري واسهاماته العلمية في احتواء الأزمات الاقتصادية، مجلة الاقتصاد الإسلامي، 1437هـ/2015م.
46. ينظر ص20 من هذا البحث.
- 47 عن هذه الطوائف ينظر الشهرستاني: الملل والنحل، تح محمد سيد كيلاني، 1403هـ/1983م، بيروت، دار المعرفة، ج1، ص220-221، ابن حزم الأندلسي: الفصل في الملل والأهواء والنحل، (د.س. ن)، القاهرة، مكتبة الخانجي، ج1، ص165، 159، شمس الدين ابن قيم الجوزية: إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان، تح محمد حامد الفقي، 1395هـ/1975م، ط2، بيروت، دار المعرفة، ج2، ص333-334، أحمد القلقشندي: صبح الأعشى، تح يوسف علي طويل، 1408هـ/1987م، ط1، دمشق، دار الفكر، ج13، ص279-282، أحمد شلبي: اليهودية، 1409هـ/1988م، ط2، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، ص218-221، 223، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة ، إشراف وتخطيط ومراجعة: مانع بن حماد الجهني، 1420هـ/1999م، ط4، الرياض، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ج1، ص407، 317، عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، 1420م/1999م، مصر، (د.د.ن)، ج14، ص377-382، 402 - 413، حسن ظاظا: الفكر الديني الإسرائيلي (أطواره ومذاهبه)، 1391هـ/1971م، فلسطين، قسم البحوث والدراسات الفلسطينية، ص247-252، 295-306، مرموده الياس، السامريون، (د س ن)، سوريا، مطبعة دار الأيتام السورية، القدس، هشام محمود الصاحب إياد: السامريون، 1421هـ/2000م، ط1، فلسطين والأردن، مكتبة دنديس، قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك ، ص254-256.

48 قاسم عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ص266، 268، للمزيد عن أحوال أهل الذمة في العصر المملوكي ينظر قاسم عبده قاسم: اليهود في مصر منذ الفتح الاسلامي حتى الغزو العثماني، 1401هـ/ 1980م، ط1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

49 للمزيد ينظر تقي الدين أحمد المقرئ: السلوك، ج7، ص185-187، سعيد عبد الفتاح عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص315-316، فاروق عثمان أباطة: أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرءاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر، ص37-46، علي إبراهيم عيسى: الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، ص54-56.

50 ينظر تقي الدين أحمد المقرئ في كتبه: السلوك لمعرفة دول الملوك والمواظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جمال الدين يوسف ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة.

51 تقي الدين أحمد المقرئ: إغائة الأمة، ص147-150، ينظر أيضاً: عبد الحليم عمار غربي: مقال بعنوان: المقرئ واسهاماته العلمية في احتواء الأزمات الاقتصادية، 1437هـ/2015م، مجلة الاقتصاد الإسلامي.

قائمة المصادر والمراجع:

أ- المصادر:

- 1- ابن تغري بردي جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي (ت874هـ/1470م): النجوم الزاهرة، تقديم وتعليق محمد حسين شمس الدين، 1413هـ/1992م، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.
- 2- الجبرتي عبد الرحمن بن حسن (ت1237هـ/1822م): عجائب الآثار في التراجم والأخبار، (د س ن)، بيروت، دار الجيل.
- 3- حضرة عزتو يوسف بك آصاف: تاريخ سلاطين بني عثمان، تقديم محمد زينهم محمد عزب، 1415هـ/1995م، ط1، (د م ن)، مكتبة مدبولي.
- 4- ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد: تاريخ ابن خلدون (ت808هـ/1406م)، (د س ن)، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

- 5- السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (911هـ/1505م): تاريخ الخلفاء، تح حمدي الدمرداش، 1425هـ/2004م، ط1، (د م ن)، مكتبة نزار مصطفى الباز.
- 6- الشهرستاني محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد (ت548هـ/1153م): الملل والنحل، تح محمد سيد كيلاني، 1403هـ/1983م، بيروت، دار المعرفة.
- 7- ابن طولون شمس الدين بن محمد بن علي بن أحمد الصالحي (ت953هـ/1536م): مفاهكة الخلان في حوادث الزمان، تح خليل المنصور، 1418هـ/1998م، ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.
- 8- ابن العماد الحنبلي عبد الحي بن أحمد العكري (ت1089هـ/1679م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب في أخبار من ذهب، (د س ن)، (د م ن)، دار الكتب العلمية.
- 9- الغزي شمس الدين أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن (ت1167هـ/1753م): الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، تح خليل المنصور، 1418هـ/1997م، بيروت، دار الكتب العلمية.
- 10- القلقشندي أحمد بن عبد الله (ت821هـ/1418م): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تح يوسف علي طويل، 1408هـ/1987م، ط1، دمشق، دار الفكر.
- 11- ابن كثير اسماعيل بن عمر أبو الفداء (ت774هـ/1373م): البداية والنهاية، تح علي شيري، 1408 هـ / 1988م، ط1، (د م ن)، دار إحياء التراث العربي.
- 12- محمد فريد بيك المحام: تاريخ الدولة العلية العثمانية، تح إحسان حقي، 1401هـ/1981م، ط1، بيروت، دار النفائس.
- 13- المقدسي أبو عبد الله محمد بن أحمد (ت375هـ/985م): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، 1411هـ/1991م، ط3، القاهرة، مكتبة مدبولي.
- 14- المقرئزي تقي الدين أحمد بن علي (ت845هـ/1441م): إغاثة الأمة بكشف الغمة، تح كرم حلمي فرحات، 1427هـ/2007م، ط1، (د م ن)، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.

- 15- ... رسائل المقرئزي (رسالة البيان والإعراب عن في أرض مصر من الأعراب)،
تح رمضان البديري وأحمد مصطفى قاسم، 1419هـ/1998م، ط1، القاهرة، دار الحديث.
- 16- ... السلوك لمعرفة دول الملوك، تح محمد عبد القادر عطا، 1418هـ/1997م، ط1،
بيروت، دار الكتب العلمية.
- 17- ... المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تح خليل المنصور، 1418هـ/1998م،
ط1، بيروت، دار الكتب العلمية.
- 18- ابن الوردي سراج الدين أبي حفص عمر (ت861هـ/1487م): خريدة العجائب وفريدة
الغرائب، تح أنور محمود زناتي، 1428هـ/2008م، ط1، (د م ن)، مكتبة الثقافة الدينية.
- ب- المراجع:**

- 1- أباطة فاروق عثمان: أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر
وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر، (د س ن)، ط2، القاهرة، دار المعارف.
- 2- الحجي حياة ناصر: السلطة والمجتمع في سلطنة المماليك (فترة حكم السلاطين المماليك
البحرية)، 1418هـ/1997م، ط1، الكويت، لجنة التأليف والتعريب والنشر.
- 3- ريمون أندريه: القاهرة تاريخ حاضرة، تر لطيف فرج، 1415هـ/1994م، ط1،
القاهرة، دار الفكر للدراسات والنشر و التوزيع.
- 4- سرور محمد جمال الدين: دولة بني قلاوون في مصر، (د س ن)، (د م ن)، دار الفكر
العربي.
- 5- شلبي أحمد: اليهودية، 1409هـ/1988م، ط2، القاهرة، مكتبة النهضة المصرية.
- 6- ظاظا حسن: الفكر الديني الإسرائيلي (أطواره ومذاهبه)، 1391هـ/1971م، فلسطين،
قسم البحوث والدراسات الفلسطينية.
- 7- عاشور سعيد عبد الفتاح: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، 1417هـ/1996م،
القاهرة، دار النهضة العربية.

8- ...: العصر المماليكي في مصر والشام، 1396هـ/1976م ط2، القاهرة، دار النهضة العربية.

9- عبد الرزاق أحمد أحمد : البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك، 1400هـ/1979م، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

10- عيسى علي إبراهيم: الفكر الجغرافي والكشوف الجغرافية، 1421هـ/2000م، مصر، دار المعرفة الجامعية.

11- قاسم عبده قاسم و علي السيد علي: الأيوبيون والمماليك (التاريخ السياسي والعسكري)، (د س ن)، مصر، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية.

12- قاسم عبده قاسم: أسواق مصر في عصر سلاطين المماليك، 1399هـ/1978م، القاهرة، مكتبة سعيد رأفت.

13- ...: عصر سلاطين المماليك (التاريخ السياسي والاجتماعي)، 1419هـ/1998م، ط1، مصر، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية.

ج- الموسوعات والمواقع الإلكترونية:

1- المسيري عبد الوهاب، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، 1420م/1999م، مصر، (د د ن).

2- الموقع الالكتروني: <http://www.saaaid.net/book/index.php>